المجلة الثامنة

# خليل مطران

## شاعر القرن العشرين الإسلامي

الدكتور اسماعيل احمد ادهم
عضو اكاديمية اللغة الروسية ووكيل المعهد
الروسي للدراسات الاسلامية

### الطور الثالث من حياة مطران

﴿ توطئة ﴾ كان الطور الثاني من حياة مطران — كما سبقت الاشارة — طور النضوج ، فيه تفتحت شخصيتهُ ووضحت مناحيه على أساس من الأصل الثابت من طبيعته، تلك الطبيعة التي تقومت بالعوامل التي تداخلت معها في الطور الأول من حياته فجعلتهُ يخلص بشخصيته واضحة السمات في تلك الفترة من الزمن التي امتدت من عام ١٨٩٢ إلى عام ١٩١٤ . فمن هنا نرى أن هذا الطور يشغل الفسط الأوسط من حياة الخليل . وقد أظهر مطران في هذه الفترة من الزمن نشاطاً أدبيًا يذكر في ميدان النظم وفي ميدان النثر . فكان من مظاهر نشاطه في الميدان الأول « ديوان الخليل » ، وهو مجموعة ما قالهُ نظماً حتى عام ١٩٠٨ ، وكان من مظاهر نشاطه في الميدان الثاني كتابهُ « مرآة الأيام » الذي أصدر جزءه الثاني عام ١٩٠٦ وهو سفر جليل في التاريخ العام جاء في جزئين . على أن جهود مطران لم تقف عند هذا الحدّ فقد تعدتها إلى دائرة المسرح ، غير أننا لم نشأ ونحن نعرض للطور الثاني من حياة الرجل في المبحث السابع أن نتناول مايدخل في هذا الطور من جهوده المسرحيّة ، ذلك أن هذه الجهود بدت واضحة آثارها في أواخر الطور الثاني من حياته، وظلت متصلة في حلقاتها ممتدة على صفحة الطور الثالث ، حتى تهيأ لمطران من جهوده المتواصلة وخبرته التي خلص بها من اتصاله هذه السنين الطوال بالمسرح العربي أن يكون المعين على حركتها بتوليه عام ١٩٣٤ رآسة الفرقة القومية المصرية لرفع مستوى فن التمثيل [1] ولهذا ابقينا الكلام فيها لهذا المبحث حيث نعرض لمطران وجهوده المسرحية متماسكة في الجملة غير منقطعة في الأجزاء.

---

(١) « لرفعة مستوى صناعة التمثيل » هكذا عند بروكلمان في ذيل كتابه تاريخ الآداب العربية — الملحق الثاني ، فقرة ١٥ ص ٩٠ .

والواقع ان اشتراك مطران في العمل على انهاض مستوى المسرح المصري ، يعود الى عام ١٩١٧ ، تلك السنة التي عاد فيها « جورج أبيض » من فرنسا بعد أن درس في « كونسرفتوار باريس » فن التمثيل المسرحي ، وعمل على تأسيس فرقة قوية جمعت نخبة من أعلام الممثلين في مصر في ذلك الحين نزل بهم ميدان العمل على خشبة المسرح المصري . وكان أن طلب « جورج أبيض » إلى صديقه مطران أن يترجم لهُ شيئاً من المسرح الإنكليزي خاصة من شيخ أعلامه « وليم شكسبير » يقوم بتمثيله هو وأفراد فرقته ، فترجم لهُ الخليل مسرحية « عطيل » Othello التي مثلت في الأوبرا الملكيَّة ( الأوبرا الخديوية في ذلك الحين ) مساء ٣٠ مارس ١٩١٧ وقام بتمثيل الدور الرئيسي فيها جورج أبيض نفسه . وكان أن قدَّم مطران في نفس الزمن لفرقة جورج أبيض ترجمتهُ لمسرحية « تاجر البندقية » . وما لا شك فيه أن المسرح المصري وجد في ذلك الحين في هاتين الرائعتين [1] اللتين ترجمها مطران مادة طيبة تستند اليها . غير أن الروح التمثيلية التي أخذ بها « جورج أبيض » هو وأركان فرقته كانت تدور حول الطرائق التمثيلية التي وضعها الممثل الفرنسي الكبير « سيلفيان » فلم تقدر بحوثها الصناعي أن تهضم القوة « الدراماتيكية » التي في مسرحيتي شيكسبير ، هضماً يساعد على جلوها بمشهد من « النظارة » على المسرح في جو طبيعي . ومن هنا كان سقوط هاتين المسرحيتين ، وكان لسقوطهما أثر في نفس الخليل جعلهُ يميل عن فكرة تقديم شيء من « المسرحيات الشكسبيرية » الى المسرح المصري ولو الى حين

غير أن شيئاً من طيبة المعاودة في نفس مطران من جهة وروابط الزمالة من جهة أخرى مع أركان المسرح المصري ، جعلتهُ يعود عقب الحرب العظمى فيشترك في نهضة المسرح المصري فيقدِّم ترجمة المسرحية « ماكبث » الى « جورج أبيض » وفرقته التي التأمت من جديد ودخلتها عناصر جديدة . غير أن حظ مسرحية « ماكبث » على المسرح لم يكن خيراً من حظ أختيها السالفتين . فقد سقط دور « ماكدَف » الذي قام بتمثيله عبد الرحمن رشدي ، وذلك نتيجة كونه صاحب طبيعة تخالف طبيعة الدور الذي أسند اليه [2] . الاَّ أن شيئاً من الصداقة بين مطران وجورج أبيض جعلهُ يقف من هذا السقوط موقف الآمل خيراً في المستقبل ، فتقدم الى المسرح بترجمته لمسرحية « هاملت » . ولم يكن حظ هذه المسرحية خيراً من حظ أخواتها لهذا لحقها في مصيرها . ومن هنا أحس مطران إحساساً قويًّا أن حالة المسرح المصري — في صورته في ذلك الحين — لا تقوى على هضم الروح « الدراماتيكية » التي في مسرحيات « وليم شيكسبير » ، لأن ذلك يستلزم أن يدور التمثيل في جو طبيعي . ولم يكن الممثلون الذين عرفتهم خشبة المسرح

(١) ينظر المفرد ومرجعه الى الشعر الافرنسي — Otello'Maure — والترجمة لمطران (٢) تجد تحليلاً لهذا الدور في حياتنا التمثيلية ، ص ١٠٨ — ١٠٩

المصري الى ذلك الحين يقدرون على جعل التمثيل يدور في أجواء طبيعية . ومن هنا كان تنوع الخليل بما كان ، واكتفاؤه بطبع بعض الروائع التي ترجمها عن شيكسبير ، فكان أن قدم منها الى الطبع ثلاث مسرحيات : « عطيل » و« تاجر البندقية » و« هملت » . على أن مطران بعد ذلك يحتفظ بين مجموعة أوراقه بترجماته لبقية مسرحيات شيكسبير [١] . هذا فضلاً عمّا يروى من أن لهُ مسرحية « القضاء والقدر » وهي معرّبة . ولكننا لم نقف لها على أثر (صديق شيبوب — البصير ٥ يونيه ١٩٢٥ )

على أنهُ مما لا يمكن انكاره ما كان لهذه المسرحيات من أثر في رفع مستوى الجو الذي يدور فيه التمثيل العربي في مصر . كما لا يمكن انكار ما كان لاشتراك مطران من أثر في رفع مستوى المسرح المصري ، فالواقع انهُ في هذه الفترة اتصلت بين مطران وبين حركة المسرح في مصر الأسباب فكان ان اشترك مطران اشتراكاً فعليًّا في حركة تقدّم المسرح . ومن آثار هذا الاشتراك مساهمته في تأسيس « شركة ترقية التمثيل العربي » وتأسيس مسرح لها بحديقة الأزبكية ، تلك المساهمة التي تكللت بالنجاح ، إذ افتتح المسرح ابوابهُ في ٣٠ ديسمبر ١٩٢٠ والقى فيه مطران كلمة الافتتاح متضمنة تاريخ الحركة المسرحية في مصر الى ذلك الحين [٢] . وهذه الجهود آتت أكلها مع الزمن إذ انتبهت حكومة الملك فؤاد الأول عام ١٩٣٤ الى وجوب الاهتمام بحركة المسرح ، فعملت على تأسيس الفرقة القومية لرفع مستوى فن التمثيل وعينت أغراضها في العمل على رفع مستوى التأليف والتعريب المسرحي وترقية الاخراج وترقية الموسيقى المسرحية والغناء المسرحي الحديث حتى تكون صالحة لتمثيل العربي والأجنبي واعداد الممثلين والمخرجين اعداداً فنيًّا ، وأسندت رآسة الفرقة الى خليل مطران [٣]

ولا شك أن وجود مطران على رأس الفرقة القومية كان منهاً عظيماً لنهضة المسرح المصري ، لأن وجود هذا الرجل — كما يقول محمود كامل المحامي — « الذي قرأ شيكسبير وفهمهُ وهضمهُ وترجمهُ وقدّم الى الناطقين بالعربية آثاره خير تقديم ، والذي قرأ هيجو وراسين ، موليير وفهمهم وحفظ أشعارهم عن ظهر قلب ودرس روح فرنسا من كتبهم وهضم الأدب المسرحي هضما كاملاً ، وعاش حياة أدبية مسرحية حافلة جديرة بأن تجعل جهود المسرح المصري وثيقة الصلة بالجهود الخالدة التي خلقت الأدب المسرحي »[٤]

---

(١) توفيق حبيب في « شيكسبير في العربية » — مقال بالهلال م ٣٦ ج ٢ ص ٢٠٠ — ٢٠٤

(٢) الهلال م ٢٩ ج ٤ ص ٤٦٥ وتجد نص كلمة مطران من الصفحة ٤٦٥—٤٧٢ (٣) الاهرام ١٤—١٢—١٩٣٧ ص ١٤ نقلا عن اشارة لبروكلمان في تكملة تاريخ الآداب العربية، الملحق الثاني فقرة ١٥

(٤) محمود كامل في مجلة الجامعة — ٣ نوفمبر ١٩٣٨ — م ٩ ع ٣٠٣ ص ٢٣

وفي الفرقة القومية يبدأ مجهود مطران العظيم في رفع مستوى المسرح المصري ، فقد بدأ العمل والفرقة لا تملك شيئاً من المعدات اللازمة فلا مكان للفرقة ولا روايات مختارة ولا اي استعداد — اللهمَّ الا ثقة الرجل بقدرته على القيام بالعمل الملقى على عاتقه [١] — وسار العمل في أوله بكتنفه بعض الاضطراب . وسرت الاشاعات هنا وهناك ، وتنبأ من يحلو لهم التنبؤ بفشل الفكرة قبل ان تولد ، ولكن بشيء من الصبر والثابرة اللذين عرف بهما الخليل أمكن للفرقة أن تجتاز الصعوبات التي لاقتها فقضت في سبيلها يحدوها الأمل في المستقبل . وبواسطة تشجيع الفرقة للأدباء خصوصاً الناشئين منهم أمكن لها أن تجمع لديها اكثر من ستين مسرحية قدّمت منها في ثلاثة مواسم اثنتين وثلاثين رواية جديدة ، وهو رقم قياسي — كما يرى مطران — لم يقدّمه مسرح من قبل [٢]

على أن الاقوال تختلف بخصوص ما أدته الفرقة وحققته من الاغراض والغايات التي قامت من أجلها [٣] . على أنهُ مما لا ينكر حقيقته بعد ذلك أن جهود مطران في الفرقة أخذت تؤتي اليوم أكلها ، والحق — كما يقول راشد رستم — انهُ لولا مطران على رأس الفرقة بسعة صدره وتحمله وصبره وجلده في هذه السن ، ولولا مكانته الشخصية لضاعت الفرقة القومية [٤] . على انهُ بعد ذلك يمكن ان يقال إن ما عرف به مطران من عدم التقيد بنظام وما اشتهر به من «البوهيمية» التي عرف بها رجال الفن إلى جانب ما عرف عنهُ من حب الاريحية التي تجعله لا يدفع قاصداً لهُ في حاجة هو قادر عليها ، كل ذلك كان سبباً للثورة على رآسته للفرقة القومية وتوجيهه لسياستها العامة . وذلك يتجلى في الحملات الصحفية التي شنت عليه [٥] . على أنك بالرغم من كل ذلك تجد هؤلاء الذين يحملون عليه لا يقدرون على جحد الرجل ومزاياه وطيب سريرته ، ويحملون ما في ادارته للفرقة القومية من ضعف على عدم تقيده بنظام في العمل ، الأمر الذي يجعل شؤون الفرقة تضطرب بعض الشيء ، وهو بعد ذلك يغطي على هذا الاضطراب أمام الرأي العام وأمام الحكومة بما فيه من قوة الشخصية

---

(١) حديث لمطران عن رسالة الفرقة القومية في مجلة ـ الامام ـ ٣ يوليو ١٩٣٩ م ٣٩ م ٦ ص ٦
(٢) المرجع ذاته (٣) مجلة الرسالة ، السنة السابعة عدد ٢٩٢ ص ٢٨٥ ـ ٢٨٦ والعدد ٢٩٣ ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣ والعدد ٢٩٤ ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ والعدد ٢٩٥ ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ والعدد ٢٩٦ ص ٤٧٦ ـ ٤٧٨ والعدد ٣٠١ ص ٧٤٩ ـ ٧٥٠ ، آراء زكي طليمات وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور وابراهيم رمزي وابراهيم ناجي وراشد رستم في رسالة الفرقة القومية وما قامت به من تحقيق للاغراض التي قامت من أجلها (٤) راشد رستم في مجلة ـ الرسالة ـ السنة السابعة عدد ٣٠١ ص ٧٥٠ م ٢ س ٣ ـ ٩ (٥) دكتاتورية المدير في الفرقة القومية بمجلة الرسالة ، السنة السابعة ، العدد ٢٨٨ ص ٩٣ ـ ٩٤

— ٩ —

من الاهمية بمكان ان نعود ونحن بصدد استجلاء وجهة حياة مطران في الطور الثالث من اواخر الطور الثاني ، تلك الاواخر التي مررنا عليها سريعاً في ختام المبحث السابق ، فنستجلي حياة مطران في الفترة التي جاءت عقب اخراجه الناس مجموعة شعره في ديوان عام ١٩٠٨ . وأول شيء يسترعي النظر من شؤون هذه الفترة هو تحول الخليل عن عالم الصحافة الى عالم الاقتصاد والمال ، فقد كان مطران يحيا في الدورين الاول والثاني من الطور الثاني من حياته ومعيشته تدور في عالم الصحافة ، الا أنّ انصرافه عنها الى الاشتغال بشؤون الاقتصاد كان نقطة تحول خطير في حياته . وهو في هذا يقول :

[ مارست الصحافة اثنتي عشرة سنة . ثم انتقلت بعد الى العمل في الاقتصاديات . فهل تعتقد ان هذا الحادث الذي أثر في مجرى حياتي قد نشأ من مال او مآل ، عظم الشأن ؟ كلا ، فانه حادث بسيط جداً ، ولكنه هو الذي غير مياني هذا التغيير الكبير ، فصرفني عن الصحافة الى الاشتغال بالمسائل الاقتصادية

ذلك اني اشتغلت بالتحرير في جريدتي « الاهرام » و « المؤيد » وغيرهما ثماني سنوات ، ثم عنّ لي ان اشتغل لحساب نفسي ، فانشأت « اخبار المغرب » نصف شهرية ، وهي آخرها أصدرت « الجوائب المصرية » ، فوجدت من الناس اقبالا ومؤازرة عظيمة ، ولكن نوع المؤازرة الذي كان في هذا الوقت لا يلائم طبعي ، فان رواج الصحف لم يكن ينشط بالاعلان او بواسطة المتعهدين كما هو اليوم بل كان بالاشتراك وكثرة عدد الاصدقاء والمحبين

ومما يحمض النفس ان دائم الاشتراك في ذلك الحين كان يعد نفسه صاحب فضل في حياة الجريدة وفي كل ما يتعلق صاحبها من جاه او مال او كرامة . وكنا نسمع من هذا القبيل مثلاً بلا حد فيما يتعلق بالجرائد المعروفة في ذلك الوقت . وأنا بخلقي نفور من سماع امتنان على هذه الصورة خصوصاً أني كنت على علم بما يعانيه صاحب الجريدة وتحريرها من مشقة واعنات

وقد كنت امتعض وأحس ان في ميلا لعمل يرزقني في غير الصحافة حينما يعود « الجابي » فيقول ان فلاناً المشترك قال كذا وفلاناً قال كذا من الالوان التي كان امتزاج المدح بها غالباً فهي تسيء الى النفس لانها تأتي أشبه بكدر الجميل او التذكير به

وذات مساء رجع الي الجابي من جولته وأبلغني ان صديقاً لي ممن كنت أعاشرهم معاشرة متصلة استسهله في أداء ما عليه ، ولم يكن ذلك للمرة الاولى . ويظهر ان الجابي — ألح عليه باعتبار ما يعرف من الصلة المحكمة بيننا ، فانتهر فيه هذا الصديق وجابهه بقوله « هو ممن عيش » . فلما سمعت هذه العبارة ، خيل الي أن كل من أدعى اليه جريدتي ، وان تلطف في الظاهر ، يحسبني متطفلا عليه فيما أتقاضاه منه ، ولا يقدر تلقاء ذلك ما يبذل من جهد في التحرير وفي تفقات الطبع والبريد وما الى ذلك من أعمال تستنفد مجهوداً ووقتاً ومالاً

وكان لي صمت حتى استقال الصحافة ، وصرت أتربص للفرصة الاولى حتى سنحت بخروجي من الميدان موفور العرض جميع الشرف والكرامة ، فوهبت جريدتي وبعت مطبعتي وانصرفت الى ممارسة الاعمال الاقتصادية وما زلت عليها الى الآن . ] (١)

وكان انصراف مطران عن الاشتغال بالصحافة الى الاشتغال بالشؤون المالية عام ١٩٠٤. وقد دارت حياة الخليل منذ ذلك اليوم متصلة بممارسة الشؤون المالية ، حتى اكتسب الخليل

(١) الهلال : م ٣٣ ج ٢ أول يناير ١٩٢٥ — ص ٢٦٩ — ٢٧٠ . رد مطران على استفتاء الهلال عن أهم حدث أثر في حياته

بحكم الممارسة مهارة في الاعمال المالية والاقتصادية أهلته للاشتراك في المشروعات الاقتصادية الكبرى التي عرفتها مصر في تاريخها الحاضر ، وعلى وجه خاص في وضع المذكرة التأسيسية لبنك مصر[1] التي كتبها عام ١٩٢٠

وقد كان من اشتغال مطران بالشؤون الاقتصادية واعتماده عليها في المعيشة أن اخذته حمى المضاربة ، فكانت من ذلك مضارباته التي كسب فيها الخليل كثيراً وخسر كثيراً ، وهو بعد ذلك جلد على المضاربة ، لا يخسر حتى يعاود الكرة من جديد وكله أمل في الربح ، والمال يجيء ليذهب ، حتى كان أن فوجيء في احدى مضارباته عام ١٩١٢ بخسارة كل ما يملكه ، وأصبح الخليل وإذا به صفر اليدين ، والرجل بعد ذلك بصلاته ومكانته من الهيئة الاجتماعية محتاج الى المادة . لهذا كانت صدمته كبيرة في خسارته التي ذهبت بكل جني جهوده في حياته الى ذلك الحين . ومن هنا جرفت الخليل موجة يأس برزت معها في ذهنه فكرة « الانتحار » . ولكن طبيعة المعاودة في نفسه ، جعلته يعيد الكرة على هذه الفكرة وينزل بها الى مقوماتها من نفسه ، ومن هنا انتهى الى ان الانتحار هروب من الحياة ، ولهذا اعتقد الخليل ان الانتحار جبن . فرجع في حالة يأس الى — مدينة عين شمس — ( مصر الجديدة — Heliopolis — ). وهناك قضى اياماً في غمرة من اليأس نظم فيها قصيدته الوجدانية « الاسد الباكي » — « الشعراء الثلاثة » ص٣١٥ — ٣١٦ — وفي مستهل هذه القصيدة يقول مطران :

دعوتك استشفي اليك فوانني ... على غير علم منك انك لي آسي
فان ترني والحزن ملء جوانحي ... أداريه فليغررك بشري وإياسي[2]
وكم في فؤادي من جراح مخبأة ... يحجبها برداي عن أعين الناس
فخذت لهمي « عين شمس » سباءة ... فشت إضحائي فريداً وإغلاسي
يخالون أني في متاع حياتها ... وبئس متاع الحي حيرة دهماس
ارى روضة لكنها روضة الذوى ... وأصغي وما في مسمعي غير وسواس
وأنظر من حولي مشاءً وركّباً ... على مزجيات من دخان وأفراس
كأني في رؤيا يزف الاسى بها ... طوائف جنّ في مواكب أعراس

وأنت تلمس في هذه الابيات ما كان يجتاح قلب الخليل من الالم والحزن وما كان يسود عينيه من النظر القاتم الى الحياة ، وما كان يوسوس في صدره بالانتحار . ولا ادل على تلك الحالة الشعورية عنده من رؤيته رياض « عين شمس » روضة موت . وما في نفسه من الاسى

(١) توفيق حبيب : المجلد الخامس ، فقرة ٢ من هذه الدراسة (٢) البيت أثبت عجزه في « الشعراء الثلاثة » هكذا : « أداريه فليغررك بشراي وإياسي » ص٣١٥ س ٢ وهذا لا يتفق مع الوزن

كان يستولي على بصيرته فيجعل الاشياء تبدو له في صور يشوبها شيء من الابهام ومن خلال هذه الصور تجلت له مرائي « عين شمس » والاماسي الذين يمضون فيها ما بين ركب في الفطر وعلى الافراس وما بين مشاة كطوائف جن في مواكب اعراس . وذلك من حيث جرفت وجدانه مشاعر الامسي فجعلته يأخذ الاشياء من عالم الواقع ليزل بها من عالم الاحلام كخيالات وأوهام

هذه الابيات — كما سبقت الاشارة — تصور أمسي مطران وشجوه وألمه . فلما انتهت القصيدة التي تضمنتها الى اصدقائه قلقوا عليه وكانوا قد قلقوا عليه من قبل لغيابه ، فتضافر هذا القلق وذاك وكان ان اخذوا يفتشون عنه في الاماكن التي كان معتاداً أن يرتادها ، ولكن تفتيشهم هذا لم يجد شيئاً . ثم كان ان سعى بعض العارفين بمكان اقامته اليه ليواسره في نكبته التي كانت قد ألمّت به وكانت قد أبعدته عن الحياة الصاخبة التي كان يحياها ، فكان ان عاد الخليل ثانية الى تلك الحياة ، وكان في عودته هذه جلداً . ثم لم تلبث ان بسمت له الحياة التي كانت قد عبست له من قبل فذهب يغامر من جديد .....

***

عين الخليل في ذلك الوقت سكرتيراً مساعداً بالجمعية الزراعية الخديوية (الملكية الآن)[1] وقد كان تعيين مطران في هذا المنصب عن رغبة من الخديوي عباس حلمي الثاني الذي كان يريد ان يجعل للشاعر مركزاً ثابتاً وايراداً غير متقلب. وقد اختار الخديوي لمطران ذلك المنصب خاصة نظراً لما يعرفهُ عن الرجل من الاشتغال الطويل بالشؤون الاقتصادية ، ذلك الاشتغال الذي أعطاه دربة فيها ، ومن ادراكه الجيد الذي أظهره فيما يتصل بالمسائل الزراعية ، تلك المسائل التي أظهر فيها الخليل معرفة مستفيضة أيام كان يصدر « المجلة المصرية » ويوقف باباً من أبوابها على الشؤون الزراعية. وبعد أن تقلّد مطران ذلك المنصب انتظمت شؤونه المادية واستقامت . وأصبح الرجل لا يخشى تقلّب الزمن وما يمكن أن يحمله في طيات هذا التقلّب من كوارث

وظل مطران منذ ذلك الحين حتى الآن يشغل هذا المنصب بجانب المناصب الاخرى التي اتفق له أن يشغلها

وكان عمل مطران في « الجمعية الزراعية » من حيث يتصل بشؤون سكرتاريتها يدور حول الحسابات ، ومن هنا اكتسب مطران بجانب دربته الاولى في الشؤون الاقتصادية والمالية خبرة واسعة بالشؤون الحسابية ظهرت آثارها فيما عهد اليه من القيام بوضع بعض المذكرات الاقتصادية التي تمت الى شؤون الحساب بسبب . وقد كان من تلك المذكرات التي راجع جانبا

(١) تأسست في ٢٠ ديسمبر ١٨٩٨ بسراي الجزيرة تحت رعاية سمو الخديوي عباس حلمي الثاني

الحسابي وضبطها تلك المذكرة التي وضعها عبد العزيز باشا فهمي ضد السر وليم بروتيت [١]

وكان أن كلف حشمت باشا وزير المعارف اذ ذاك مطران وصاحبه حافظ بك ابرهيم أن يترجما الى العربية كتاب «الموجز في علم الاقتصاد» وهو سفر ضخم لبيروفسور بول لروا بوليو مدير جامعة بواتيه بفرنسا ، فجاءت الترجمة في خمسة اجزاء كبار في نحو ٩٣٠ صفحة [٢]. والكتاب، وما فيه من دقة الترجمة واستيعاب المعاني التي دارت بذهن مؤلفها ، يعود الى مطران لا الى حافظ [٣]. هذا فضلا عن ان بعض الريب يحف بما لحافظ ابراهيم من جهد في الترجمة . ومن ذلك الحين عرف مطران بأنهُ من رجال الاقتصاد والحساب [٤]. غير ان ذلك لم يطغ على الاصل الشاعري من نفس الرجل كما ستجيء الاشارة الى هذا

وما كان لمطران من حظ الاشتراك في تقدم مصر الاقتصادي والعمل في ميدان استقلالها الاقتصادي ، جعل محرر الهلال يتوجه اليه بالسؤال عن مصر كما يريدها من الوجهة الاقتصادية ، وذلك عام ١٩٣١ ، وكان ذلك ضمن سلسلة الاسئلة التي وجهتها دار الهلال الى اعلام رجالات مصر في النواحي التي برزوا فيها . وقد اجاب مطران وقال :

[ أريد مصر عزيزة بكل المعاني . على أن في مقدمة العناصر التي تكوّن عزة الامة : العنصر الاقتصادي . ولما كانت مصر تعاني الآن أزمة اقتصادية لا يذكر التاريخ الحديث أنها عانت مثلها كان الافضل ان اجعل مدار أمنيتي ما اعتقده وسيلة أولية لابلاغ مصر العزة التي أرجوها لها

مصر غنية — على القول المشهور — ولكن بمعنى ان نيلها يدرّ الخير وأرضها خصبة تجود بأربعة محاصيل . ولها عدا ذلك موارد اخرى من طبيعتها وسجايا أهلها التي فيها قابلية عجيبة للصناعات والتنوّر وينبغي ألاّ تقل ثروتها منها عن ثروتها من ارضها

ولكن تصرف السواد الاعظم من الامة في شؤونهم الكسبية والمعيشية قد أفقدهم تلك المزايا فليس نصيبهم منها بأوفر نصيب وعلى هذا لا بد من عكوف كل كاسب في مصر زارعاً كان او صانعاً او تاجراً او ذا منصب على نفسه يحاسبها ويطالبها بما هو واجب عليه لنجاته من هذه الضائقة وبالتالي نجاة قومه وهل الأمة الاّ مجموع أفرادها

يجب ان يعرف كل منا في مصر ان الحياة أداء واجب وان المتاع نتيجة من أداء ذلك الواجب فالصدق في المعاملة وان ابعد صاحبه ، والقصد في النفقة بحيث تنقضي بها الحاجة وان ظن الانسان ترك اللهو واجتناب معاهده حرماناً — واقبال الفلاح على غيطه يحرثه حق

(١) توفيق حبيب — البحث الخامس فقرة ٢ من هذه الدراسة (٢) صديق شيبوب في البشير — ٥ يونيه ١٩٢٥ ص ١ من مقال له عن مطران (٣) أحمد محمد عيش في مجلة آبيلوم ٦ ج ١١ — يوليه ١٩٣٣ — ص ١٣٩٣ ص ٨—٩ مقال عن « سيرة حافظ » (٤) الشنقيطي — ديوان شعر لابو شادي — ص ٧ مقدمة الناشر حسن صالح الجداوي — الهامش ص ٥

جرثه ، والعامل على عمله يوفيه وتجيده ، والموظف على وظيفته يؤديها اداء الخدمة ، والعريف على ادارته يحكمها بصبر وبصيرة الخ الخ . . . كل اولئك مما يكوّن أمة رضية البال قوية العزيمة راضية مرضيًّا عنها

فأنا اريد مصر عاملة بجدة صابرة على ما تقتضيه الحياة الكبرى ، اريدها حاسبة متفقة خبيرة في الموازنة بين دخلها وخرجها ، اريدها ان تعدل عن السرف حكومة وشعباً وان ترد الرأي التي صدرت عنه قبلها الامم السائدة الآن في العالم ، وهو ان القوة والمنفعة فيما ندخر ، وان الضعف والذلة وراء السرف والتبذير ] (١)

هذه وصايا حكيمة ألقاها مطران على شعب مصر وحكومتها عام ١٩٣١ أثناء اشتداد الازمة المالية في العالم ، وهي تدل على شعور مطران نحو مصر من جهة ، كما تدل على خبرته بمواطن الداء في الوضع الاقتصادي في مصر من جهة اخرى

— ٢ —

كان الخديوي عباس حلمي الثاني في اواخر عهد خديويته على مصر ملتقى آمال شباب العرب وعقد رجاء أحرارهم خصوصاً بعد أن ظهر الاتحاديون بنياتهم العدائية نحو العرب (٢) وقد اراد الخديوي أن يجمع من حوله قلوب العرب ويادلهم آمالهم فيه بتشجيعهم ، فشمل برعايته رجالاتهم ، وكان من ذلك عنايته الشديدة بخليل مطران الذي كان يعتبر لظهور شخصيته في المجتمع المصري سفير سوريا في مصر . ومن مظاهر عناية الخديوي بمطران توجيهه منصب الكرتير المساعد بالجمعية الزراعية الى مطران ، وانعامه عليه في اواسط شهر اغسطس سنة ١٩١٢ بالوسام المجيدي الثالث (٣) وايعازه بواسطة اسماعيل باشا الباظة المشهور بأدبه واتصالاته بالادباء المصريين والسوريين الى «سليم سركيس» — صاحب مجلة «سركيس» — باقامة حفل لتكريم الخليل . وقد لاقت الفكرة صدىً عند جمهور الادباء وأولاها سليم سركيس اهتمامه وجرت في شأنها مكاتبات انتهت بفكرة اقامة الحفل (٤) وفي ٢٤ ابريل سنة ١٩١٣ اقيمت الحفلة في دار «الجامعة المصرية الاهلية» (٥) تحت رعاية سمو الخديوي ونيابة الامير محمد علي عنه . وقد افتتح الحفل الامير محمد علي بكلمة رقيقة اثنى فيها على الشاعر المحتفل به قال فيها :

[ لقد سمعت منذ زمان طويل بشهرة ذلك الشاعر الكاتب الصديق وهو حضرة خليل مطران ذ بتهجت بمارصل الي من أفكاره السديدة التي تلي . عما هو من علو في الهمة وثبات في الرأي ووفور في العلم . ولم

(١) مصر كما أريدها من الوجهة الاقتصادية لمطران — الهلال ، ٣٩ ج ١ ص ١٩ (٢) المقتطف ج ٤٣ ج ٤ : الحركات العربية لانيس المقدسي (٣) مجلة سركيس — سنة ١٩١٣ ص ٢١١ ص ١ — ٣ (٤) مجلة سركيس — ١٩١٣ ص ٢١١ — ٢١٥ (٥) مجلة سركيس — ١٩١٣ — ص ٣٤٤ ص ١ — ٢

يكن اعجابي به لما آوتيه من المواهب الجلية في دولة العلم فقط بل لما تحلى به أيضاً من الاخلاق الكريمة التي تحمله دائماً على سلوك طريق الاستقامة وتباعد بينه وبين التحقير لغير حق مما ذلك محبوباً مرموقاً بين الاجلال والاعتبار متأهباً لنيل المجد والفخار

ومن البديهي ان اتصافه بهذه الصفات الممدوحة لم يكن الا نتيجة تربية عالية . . . . وقد وهب الله صديقنا مطران ذكاء فطرياً فجادت قريحته الوقادة بالاشعار الرقيقة والحكم السديدة الدقيقة فترقى بذلك الى الدرجة التي نال بها الحظوة عند خديوينا المعظم . ] (١)

ثم القى احمد شوقي بك رئيس الادباء في الحفل قصيدة حيّا فيها مطران . وتوافد بعده الأدباء فألقى جورجي زيدان كلمة عن شعر مطران والتاريخ ( مجلة سركيس ، سنة ١٩١٣ ص ٢١٩ — ٢٢٤) . وكتب أمين الريحاني كلمة ( المرجع ذاته ص ٢٣٠—٢٣٣ ) ، والقى حليم دموس شاعر زحلة قصيدة عصماء (المرجع ذاتهُ ص ٢٣٤ — ٢٣٧ )

وأرسل جبران خليل جبران من نيويورك أقصوصة عن الشاعر العبقري مدارها خليل مطران وعبقريته ( مجلة سركيس — ١٩١٣ — ص ٢٣٨ — ٢٤٤ ). والقى شبلي بك الملاط مطولة من الشعر ( المرجع ذاته ص ٢٥٠ — ٢٥٦)

والقى انطون الجميل كلمة عن شاعرية الخليل [ المرجع السابق ذكره — ص ٣١٨ — ٣٢٩ وهو في الأصل مقال بالهلال م ١٦ ج ٩ — ( ١ يونية ١٩٠٨ ) ص ٥٣١ — ٥٣٩ ] . وفي الختام القى الخليل قصيدة عصماء حيّا فيها الذين احتفلوا به وشكر سمو الخديوي والأمير محمد علي ( مجلة سركيس — ١٩١٣ ص ٣٤٥ وما بعدها )

لقد كان الاحتفال بمطران مهرجاناً كبيراً للأدب ، ومظهراً للروابط التي كانت تربط سوريا بمصر . وقد ظهر ذلك في اكثر ماقيل في هذا الحفل مما قالهُ الشعراء وما قالهُ الكتاب ، وفيما علقت به الصحف على الحفل (٢) بكل وضوح

كان لهذه الحفلة أثرها الكبير في جو مصر الأدبي ، إذ أظهرت من نواياه المهرجان وما تلي فيه شخص الخليل كأعلم شخصية أدبية في العالم العربي . فقد اشترك في هذا المهرجان جميع أدباء العربية وكتابها وشعرائها وأعلامها والناهين من حملة القلم فيها ، فقد جمعت شوقي بك وحافظ ابراهيم واسماعيل صبري باشا ونقولا رزق الله وبشارة الخوري وحليم دموس وشبلي الملاط ومسعود سماحه ويوسف بك حيدر وأسعد داغر وأحمد نسيم وشكيب أرسلان ومحمد حمدي البشار الذين اشتركوا بمقطوعات وقصائد من الشعر ، كما جمعت جورجي زيدان وأمين الريحاني وجبران خليل جبران وماري زيادة وانطون الجميل ومحمد لطفي جمعة وعباس محمود العقاد ومحمد كرد علي الذين اشتركوا بمقتطفات أقلامهم ، والدكتور ابراهيم شدودي الذي اشترك

(١) مجلة سركيس ١٩١٣ — عدد خاص عن مطران . ص ٣٤٠—٣٤٢

(٢) مجلة سركيس ١٩١٣ . ص ٢١ ص ١٦ — ١٧ و ص ٢٢٦ بالمقطع الثاني من القصيدة وص ٢٤٣ — ٢٤٤ وص ٢٥٤ — ٢٥٥ مثلاً . . .

في المهرجان الكبير بقطعة زجلية رائعة . وقد نشر معظم هذه القصائد والمنشآت الثانية في مجلة سركيس في عدد خاص [١]، كما نشر في الأعداد التالية ما لم يتسع لهُ العدد الخاص . ولا شك أن هذا الحفل كان أعظم مهرجان أدبي شهدتهُ البلاد العربية ومصر الى ذلك الحين ، ولم يجيء بعده ما يضارعهُ غير يوبيل المقتطف عام ١٩٢٦ وحفل مبايعة شوقي بك بإمارة الشعر في دار الاوبرا الملكيَّة عام ١٩٢٧ . ومما لاريبة فيهِ أن هذه الحفلة حققت أغراضها من حيث القضاء على النعاية التي كان يروّج لها البعض للتفرقة بين المصريين والسوريين . كما أنها كانت خير مكافأة لمطران على جهوده الأدبية وخدماته للخديوي وليته واخلاصه لمصر ، تلك الاشياء التي شهد له الأمير محمد علي بها فقال في حديث لهُ عام ١٩١٣ :

« قد عرفت مطران من عهد والدي حتى الآن فرأيته قد امتاز بانصرافه كرهذا الزمان الى المحافظة على خطة ولاء مستقيمة لم يحد عنها كل حياته الفنية في مصر وهذا الثبات على المبادىء والاخلاص الدائم لمصر والمصريين هو فضيلة يجب اعتبارها واكرام المتحلي بها (٢)

***

يظهر مطران في الفترة التي جاءت قبل الحرب العظمى متشبعاً بفكرة الجامعة العثمانية ، وذلك بحكم عواطفه التي كانت تجري مع عواطف معظم المصريين في ذلك الحين مما سبق الإشارة اليهِ . أما بعد الحرب فنرى عواطفه مصرية وإن خالطها بعض العطف على بلاده الأولى سوريا . وهذا التطور نتيجة لأحداث الحرب والآثار التي خلفتها في المجتمع المصري ، كالثورة المصرية التي أظهرت الشعور المصري ميالاً الى الاستقلال منقبضاً على نفسهِ عند حدود قوميته . وقد جارى مطران هذا الشعور الجديد فمال مع الفكرة القومية المصرية وأيَّد سعد زغلول في حركتهِ الوطنية وألَّف ملفَّ الوطنيين المصريين في حملتهم على السياسة الانجليزية . على أننا يجب ألا ننسى ان هذا الشعور طبيعي عند مطران لو نظرنا الى ان الأحوال التي كانت مصر تجتازها كانت سوريا بلاده تجتازها ايضاً . ومن هنا كان صدق الشعور عند الرجل وخلوص العاطفة في مبادهِ مع الفكرة القومية المصرية

ويظهر ميل مطران مع الفكرة القومية المصرية في قصائده التي تتصل بذكريات جهاد مصر في سبيل استقلالها وتأمين دستورها وفي مرثاته لسعد باشا زغلول عام ١٩٢٧ التي ضمنها الكثير من التصاوير والمهاويل الشعرية التي تحمل خلجات نفسهِ وميول عاطفته نحو مصر [٣] . وكذلك في مرثاته لصديقهِ محمد بك أبو شادي تظهر ميوله واضحة . يقول مطران :

زمان تغنينا المجد فيهِ حقوقه ولم نله عن لهو ورشف رضاب

(١) عام ١٩١٣ ص ١٩٠ — ٢٦٠ (٢) مجلة سركيس — عام ١٩١٣ — ص ٢٠٧
(٣) مرثية مطران لابي شادي ص ٧١ — ٧٣ من كتاب محمد أبو شادي — دراسة أدبية تاريخية للسيد عبد الحميد الديلاني وعبد الحفيظ الروبي

محضنا به مصر الهوى لا يشوبه ... سدار قصاص او رجاء ثواب
وما مصر الا جنة الارض سيجت ... بكل كبير الهم غض اهاب
فداها ولم يكترث ان جار حكمها ... فذل عداميها وعز عاتي
فكم وقفة اذ ذاك والموت دونها ... وقفنا وما نلوي اتقاء عقاب
وكم كرة في الصحف والسوط مرهق ... كررنا وما نرتاض غير صعاب(١)

وأنت تلمس في وضوح في هذه الابيات شعور الخليل نحو مصر، وما كان يخالجه من احساس الميل لها والذود عن حياضها، وهذا الشعور يتسق مع ما قلناه بخصوص عواطف الرجل نحو مصر

— ٣ —

اتصلت في الفترة التي بين عام ١٩١٢ وعام ١٩٢٤ الصلة بين نفس مطران وآثار الشاعر العالمي «وليم شكسبير». فقد كان مطران في ذلك الحين يترجم بعض الروائع من مسرحيات شيكسبير الشعرية الى العربية نقلاً عن ترجماتها الفرنسية. وما كان له ان يشتغل بالترجمة ويدير معاني شكسبير في ذهنه حتى يستزل لها قالبها الشكلي في العربية، الا ويعلق بذهنه بعض معاني «شيكسبير» وأخيلته وتصاويره وتشابيهه ومجازاته الشعرية. ولما كان هذه الاشياء كانت تصطخب في ذهن الخليل، فقد كانت تحضر عنده حين يعرض لنظم الشعر، وتتسرب الى قصائده، ومن هنا جاء ما في شعره لتلك الفترة من التأثر بالاغراض والمعاني الشكسبيرية. ومطران لم يخرج في ذلك عن كونه انساناً يتأثر بمطالعاته خصوصاً اذا كانت من الطراز العالي. فضلاً عن ان هذه الآثار التي بطالما كان يعيد الكرة عليها حتى تلين له معانيها فيقدر على صبها في القالب العربي، ومن هنا كان تذوقه للمعاني الشكسبيرية والاخيلة الخاصة بوليم شيكسبير ماثلة الرواء Fresh دائماً. ولهذا يجب ألا نتحدث عن الاقتباس والمتطرحين نرى مطران يسوق في قصائده الشعرية التي نظمها لتلك الفترة من الزمن بعض المعاني والاغراض والاخيلة الخاصة بشيكسبير. لأن السبب في ذلك واضح ثم عندك لكل من الشاعرين — وليم شيكسبير وخليل مطران — منحاه الخاص في شعره الذي يتسق بطبيعته الخاصة

وشعر مطران لتلك الفترة من الزمن متفرق في بطون مجلات وصحف ذلك العهد وبعضه روي في بعض الكتب الادبية. وهي بعد ذلك لم تجمع في مجموعة شعرية، وأول القصائد التي تصادفنا من آثار تلك الفترة وتلك القصائد التي تتعلق بالحرب الطرابلسية، نجد تماذج منها في كتاب الشعراء الثلاثة (في سبيل الهلال الاحمر ٣٠٨ — ٣١١ ووداع لبنات الهلال الاحمر ص ٣١٤) كما نجد مقطوعة في المنتخف (عتاب واستعراض — م ٨٤ ج ٦ ص ٩٦٣). ثم يجيء بعد ذلك قصائد ومقطوعات في الرثاء وفي بعض حفلات التكريم التي أقيمت لفلك العهد، من ذلك قصيدته التي القاها عن تحية الشام لمصر في نادي الاتحاد السوري في ٢٨ ابريل ١٩١٥ ومستهلها:

الى مصر أزف عن الشآم ... تحيات الكرام الى الكرام

وتجدها في الشعراء الثلاثة ص ٣٣٢—٣٣٤ ورثاؤه لشيخ علي يوسف (ص ٢٧٤—٢٧٧ الشعراء الثلاثة وقد قيلت في حفل الاربعين بدار السادات مساء ٥ ديسمبر ١٩١٣) ومرثاته لجورجي زيدان

(١) مجموعة المراثي التي قيلت في سعد وغلول

( ص ٣٠٢ — ٣٠٣ الشعراء الثلاثة ) ورثاؤه للقولا رزق الله ( ص ٩٩٥ من الهلال م ٢٣ ج ٨ يولية ١٩١٥ ) وقصيدته عن ميشيل لطف الله وما نرد زص ٢٢٨ — ٢٣١ من الهلال م ٢٤ ج ٣ ديسمبر ١٩١٥ ) والقصيدة منشورة بخط مطران ) وقصيدته لملاطفة الطبية الشوام الازهر ( الهلال م ٢ ج ٦ ص ٥٠٤ والشعراء الثلاثة ص ٣٤٥—٣٤٦ ) وفي مستهلها يقول :

يا مصر أنت الاهل والسكن وحبي في الارواح مرتهن

ومن قصائده الغر لذلك العهد قصيدته عن « وفاء وردة » ( الهلال م ٢٥ ج ٢ ص ٢٣٠—٢٤٠ ) ومرثاة للدكتور شبلي شميل (١) ( الهلال م ٢٥ ج ٥ ص ٤٢٤—٤٢٦ وبين الرياض وصاحبه (٢) ( الهلال م ٢٥ ج ٨ ص ٦٢٤—٦٢٦ ) و« الالم أخاء والوسيلة السخاء» ( الهلال م ٢٦ ج ١ ص ٥٤٣—٥٤٤ ) ومستهلها :

عنوكم ما تقدمه أقـــدام حتى مثلنا عن مثله الاحجام

وتحية مطران لشوقي عقب عودته من المنفى ( الشعراء الثلاثة ص ٢٥٩ — ٢٦٣ ) وقصيدة الاخاء والوئام بين آباء مصر وابناء الشام ( الهلال م ٢٧ ج ٨ ص ٧٤١ — ٧٤٣ وقد القيت في حفل في دار البطريركية الارثوذكسية بالقاهرة ) و « حكاية وردة » ( الهلال م ٢٧ ج ١٠ ص ٨٩٧ — ٩٠٠ ) وفيها التأثر واضح بقصائد شيكسبير وقصيدة « يوم البرميل او مرقص البر والبحر » ( م ٢٩ ج ١ ص ٧٠ — ٧٢ ) و « الحياة والفن في تكريم محمود مختار المثال بمناسبة تمثاله نهضة مصر ( الهلال م ٢٩ ج ١ ص ١٧ — ١٨ ) ومرثاته لولي الدين يكن (الهلال م ٢٩ ج ٨ ص ٧٤٣—٧٤٤ وقد ألقيت في حفلة التأبين ) وقصيدة « الخديعة المرتجاة » ( الهلال م ٣٠ ج ١ ص ١٦ ) و « الى تي » شكراً لها على اهدائها له « ابتسامات ودموع » ( الهلال م ٣٠ ج ٢ ص ١٢٥—١٢٧ ) و « رثاء مريانا مراش » ( الهلال م ٣٠ ج ٤ ص ٣٢١ ٣٢٢ ومقدمة بكلمة من مجلة الهلال فيها ان هذه القصيدة بوصفها لم يسبق مطران اليها سابق في العربية ) و « النوارة او زهرة المرغريت » ( الهلال م ٣٠ ج ٤ ص ٣٣٠ ) و « نشيد الكشافة » ( الهلال م ٣٠ ج ٤ ص ٣٨٧ ) و « رثاء نسرم شقير » ( الهلال م ٣٠ ج ٨ ص ٧٤٤ — ٧٤٥ ) ومرثاة اسماعيل صبري باشا ( الشعراء الثلاثة ص ٢٧٧ — ٢٨٣ ) و « الشر الفعي » ( الهلال م ٣٢ ج ١ — ص ٣٩ ) و « صيحة ألم » ( الهلال م ٣٢ ج ٣ ص ٢٤١ ) و « يوم الخميس » ( الهلال م ٣٢ ج ٥ ص ٤٧٦—٤٧٧ ) وفي ظل تمثال رمسيس ( المقتطف م ٦٠ ج ٢ ص ١٢٩—١٣٤ ) و « الحسن الجديد » ( الهلال م ٣٢ ج ٧ ص ٦٨٩ ) و « نشيد توت عنخ آمون » ( الهلال م ٣٢ ج ٩ ص ٩٠٣ وقد لحنها فيكتوريا ملحسة وأنشدتها في حفل ) ]

وفي هذا الوقت في صيف عام ١٩٢٤ سافر مطران الى سوريا وطاف في ربوعها وانتهى الى حلب وعملت له حفل تكريم في نادي الشبيبة الكاثوليكية تحت رعاية الحاكم العام لحلب وذلك في ٢٥ سبتمبر ١٩٢٤ وألقى فيها مطران قصيدة عصماء عن حلب ( تجدها ص ٤٨٩ — ٤٩٢ من مجلة الكلمة السنة ١٣ عدد تشرين ثاني وكانون أول ١٩٣٨ )

ورجع مطران من القطر السوري وعكف على ترجمة كتاب عن البرو فسور باون مدير جامعة اكس موضوعهُ الارادة ، نشر منهُ فصولاً في مجلة الهلال، تجدها متفرقة على صفحاتها (٣) الحين

---

(١) الهلال م ٣٦ ج ٠ ص ١٢٠٤ يقول مطران : انه يتعرض لغرض الشعر بايجاز فاظهر مثال ذلك مرثاته لشبلي شميل. فقد جعله الحزن يجيد بدلا من ان يستسلم للدموع ويبكي، فهو يفرج عن ضيق نفسه وتطلقة الحزن التي عند تأليف القصيدة ويخرج منها كالرجل المحزون يكي حتى يكاد يقتل نفسه من البكاء

(٢) نظمت عام ١٩١٤ وأهديت الى مدام قتلا باشا شكراً لها على اهدائها هدية ثمينة اليه وهي من النوع الرمزي — ص ٢٦١ ص ٢ م ٢٥ ج ٨ من الهلال (٣) الهلال م ٣٣ ج ١ ص ٥٧ — ٦٢ وج ٢ ص ١٢٥—١٢٧ وج ٣ ص ٢٤٢ — ٢٤٤ وج ٤ ص ٣٥٧—٣٦٠ وج ٥ ص ٤٧٢—٤٧٥ وج ٦ ص ٦٣٤ — ٦٣٦

وقد أظهر مطران لهذه الفترة من الزمن بجانب نشاطه في عالم الشعر ، نشاطاً يذكر في عالم النثر . فقد نشر ثلاثاً من ترجماته لروائع مسرحيات وليم شيكسبير وقد سبقت الاشارة الى ذلك ، كما كتب مطران فصولاً أدبية تمتاز بطلاوتها الصيقة في الاهرام والهلال والمقتطف ، من تلك الكتابات ما كتبهُ عن دائرة المعارف لفريد وجدي (الأهرام — ١٩ سبتمبر ١٩٣٢) ، وما كتبهُ عن الجزء الثاني من البؤساء ترجمة صديقه حافظ ابراهيم ( الأهرام ١٠ اكتوبر ١٩٣٢) ، وما نشرهُ عن كتاب « كلمات وإشارات » للأستاذ مي ( الهلال م ٣٠ ج ٥ ص ٤٩٩ — ٥٠٤ ) ، وما كتبهُ من دراسة نقدية لديوان ولي الدين يكن (المقتطف م ٦٦ ج ٣ ص ٢٤١ — ٢٤٩ )

***

تعتبر الفترة التي بين عام ١٩٢٤ وعام ١٩٣٨ ، الفترة التي بلغ فيها الخليل ذروته من الشعر وقد استهل هذه الفترة بملحمته العظمى « نيرون » التي تعتبر اول ملحمة من الشعر في الادب العربي ، وهي خير ما نظمهُ الخليل ، ويظهر فيها مطران وقد ملك أعنة خياله الوثاب وهضم شيكسبير هضماً قوياً فلم تتسرب معانيه وأغراضه الى ملحمته الا بعد ان مثلها وأدارها في ذهنه فجاءت من نفسه . وهذه الفترة من حياة مطران يمكن ان نقول عنها ، انها فترة ظهوره بالاغراض الشيكسبيرية في الشعر ، ولكن على اساس من الرجوع الى نفسه

والاشعار التي قالها مطران لهذه الفترة من الزمن غير مجموعة في ديوان ، فهي متفرقة في بطون صحف ومجلات ذلك العهد ، ونحن نذكر منها ونسجل أهم ما استوقفنا منها على ان نعود في المبحث العاشر ونثبتها كلها . وأول ما يصادفنا من شعره لتلك الفترة الزمنية قصيدته « باشات الازهار » ( الهلال م ٣٥ ج ١ ص ٢٤ قيلت في وصف فتيات يمسن الازهار في حفلة لاعانة منكوبي الشام ) و« وصف مغنية » ( الهلال م ٣٥ ج ١ ص ١٧٧ وهي في وصف مغنية شاهدها في حفلة وئام واتلاف ) و « ايزيس او لعب الخالد » ( الهلال م ٣٦ ج ٦ ص ٦٥١ — ٦٥٢ ) و « موليير » ( م ٣٧ ج ١ ص ١٨ — ١٩ من الهلال ) و « في سبيل الصناعة الوطنية » ( الهلال م ٣٨ ج ١ ص ٤٤ — ٤٥ ) و « ما مصير القوم » ( المقتطف م ٧٧ ج ٣ ص ٢٥٦ ) و « هند » ( الهلال م ٣٩ ج ٢ ص ١٨٩ ) و « بنت شيخ القبيلة » ( المقتطف م ٨٠ ج ١ ص ٢٣ — ٢٤ ) و « مفاخر الهدايا للعروس المحسنة » ( ابولو . م ١ ج ٣ ص ٧٢٤ — ٧٢٧ وهي في ٩ مقاطيع ) و « الترجمة » ( الهلال م ٤١ ج ٩ ص ١٢٥٩ ) و« مرثاة حافظ » ( ابولو م ١ ج ١١ ص ١٢٩٨—١٣٠٦ وتعليق عليها للاستاذ احمد الشايب في نفس المرجع ص١٣٠٦—١٣١٠) و « بنفسجة في عروة » ( ابولو م ١ ج ١ ص ٦ — ٨ ) و « النيل الخالد » ( أبولو م ١ ج ٤ ص ٤٨٧ — ٤٩١ ) و « تكريم زكي مبارك » (أبولو م ٢ ج ٩ ص ٨٠٧ — ٨٠٨ ) و « رثاء شيخ العروبة » أبولو م ٣ ج ٤ ص ٥٧٦ — ٥٧٨ ) و « بين عروسين » ( مجلتي م ١ ج ٥ ص٤٧٣ — ٤٧٥ ) و « شبل الاسد » ( الاهرام ٢٩ — ٧ — ١٩٣٧ ص ٩ )

وقد تضافرت الروايات عام ١٩٣٣ عن عزم مطران ان يخرج مجموع شعره كاملاً في ديوان مشفوعاً بدراسة نقدية وافية من قلم الدكتور طه حسين[1] غير انهُ على الرغم من مضي

(١) ابولو : م ١ ج ٢ ص ٧٠٢ وبروكلمان في تكملة تاريخ الآداب العربية . الملحق الثاني فقرة ١٥ ص ٨٩ — ٩٦ )

خمس سنوات على ذلك التاريخ ، لم يخرج مطران شيئاً . وان كان يروي من جديد انهُ شارع في جمع شعره وتنقيحه مقدمة لإخراجه في ديوان على ابناء العربية . ولا شك ان صدور مثل هذا الديوان سيكون شيئاً عظيماً للادب العربي المعاصر ، لانهُ سيجمع شعر ثلاثين سنة من نظم الخليل مما لم يثبت في ديوانه الاول وما هو متفرق في بطون الصحف والمجلات العربية في مصر وسوريا ولبنان . على اننا من باب التسجيل التاريخي قد اثبتنا هنا ما قدرنا على اثباته من المواضع التي عثرنا فيها على شعره ، وسنثبت في البحث العاشر ، كل ما عثرنا عليه من كلام منظوم أو منثور في نثبت يساعد من جهة على حصر آثاره ، ومن جهة أخرى على دراسة شعره

***

لقد ساعد ما كان للخليل من حظ في الحياة الأدبية العربيّة أن يجعل لهُ مكاناً بين أدباء العربية المعاصرين ، فذاع وانتشر اسمهُ وأصبح الرجل ملء اسماع الناس في الشرق العربي ، واتيح لهُ المستشرقون في أوربا ، فكتبوا عنهُ وجعلوهُ رأس مدرسة جديدة في الأدب العربي (١) وذهب البعض يقارن بينهُ وبين شوقي بك ، ومنهم من قدَّمهُ على شوقي واتخذهُ اماماً وزعيماً للشعر المعاصر (٢) — ذلك أنهم أخذوا بروعة الجديد الذي حمله شعر الخليل ومنحاهُ الشخصي في شعره الذي يطبعهُ بطابع خاص (٣) — وليس هنا مجال الكلام على شاعرية الخليل وأغراض شعره وما يلبسهُ هذا الشعر من الصور التي يرتديها من عالمي الوجدان والطبيعة ، فلذلك مكانه الخاص من دراستنا . اما الذي نريد تقريره هنا ، أن هذه الحياة الحافلة التي عاشها الخليل نظراً لانها كانت حياة ضخمة ، فقد ملأت أسماع الناس ، وكانت قدوة للكثيرين ، وأحدثت أثراً لم يحدثهُ غير القليل من الأدباء الاعلام الذين عاصروه

والواقع ان مطران عاش عيشتين : عيشة مادية في عالم الواقع ، تتضح صورتها في جهاده في الاعمال المالية والاقتصادية والزراعية . وعيشة ذهنية تتظاهر في الحياة الشعرية التي عاشها . غير ان الحياة الذهنية كانت غالبة عليهِ ، ولهذا لم ينجح مطران في حياته في عالم الاعمال ، وهو نفسه يعترف بأنهُ لم يخلق للجهد العملي وان عبقريته الحقيقية لا تخرج عن عالم الذهن (٤)

وحياة مطران التي دارت في معظمها في عالم الذهن ، كانت حياة شعورية يتعارض في

(١) بروكلمان تكملة تاريخ الآداب العربية . الجزء الثاني فقرة ١٠

(٢) صديق شيبوب — البصير — العدد ٨٤١٨ — ٥ يونية ١٩٢٥ ص ١

(٣) صديق شيبوب في البصير — ٥ يونية ١٩٢٥ ص ١ والنائب في أبولو م ١ ج ١١ ص ١٣٠٧ — ١٣٠٨ (٤) مطران في حديث له مع سلامه موسى بالهلال م ٣٦ ج ٩ ص ١٠٣٤—١٠٣٨

شبكة اقوالها الفكر والعقل . ومن هنا كان مطران شاعر الفكرة في الأدب العربي الحديث[١] ،

وقد عرف ذلك معاصروه عنهُ فاعترفوا له به وفي ذلك يقول حافظ ابرهيم :

« هو في طليعة أولئك الذين خرجوا من أفق التقليد ، وصدعوا قيود التقييد ، وأوسعوا صدر الشعر العربي للخيال الأعجمي . وأسعوا فيه للتقصص وتصوير الحوادث وطوعوا بسرد وقائع التاريخ نفتح بذلك فتحاً جديداً » (٢)

كما وان الاستاذ الشايب يعترف له بذلك فيقول :

[ ان مطران ليس شاعراً فقط أو هو شاعر من الطراز المثقف ، هو عالم وأديب : صياغة بديعة ، وتصوير صادق ، وخيال عام ، وأفكار عديدة ] (٣) ـــ

هذا والشيخ ابراهيم اليازجي يشهد له بتمكنه في الأدب الى حدّ أنّ ليس بين المعاصرين من يقدر أن يمشي معهُ فيقول عن قصيدته في رثاء نجيب الحداد

« هذا هو شعر خليل مطران الحقيقي ولو كان شعره على هذه الصور والمعاني وهذا الحسن في الصنعة في اظهار العواطف لما مشى معه أحد من المعاصرين (٤)

وليس المجال استقصاء كل ما قيل في الخليل فهو لو جمع لكان كتاباً ضخماً (٥)

## خاتمة

يبلغ الخليل الآن من سني حياته العامرة بحافل الاعمال والآثار الثامنة والستين من عمره . وقد عرضنا لهذه الحياة في خطوطها العامة ونزلنا بها الى الأصل الثابت من قسمه مستعينين على ذلك بكلام الخليل حيناً وبما كتب عنهُ حيناً آخر ، ماثلين الفراغ الذي في هيكل حياته بما يمكن أن يُستخلص من شعره . وهكذا انتظمت معنا حياته في سلسلة تتدرج جميعها في صورة مطردة ترتكز على الواقع . اما امتداد هذه السلسلة في المستقبل فنتركه الى الزمن بحيث لا يخرج ما يجد لمطران من وقائع وآثار عن نطاق الخطوط التي رسمناها لشخصيته في دراستنا

على أنهُ مما يحسن التنبيه اليه هنا اننا في اثناء استعراض سيرة الرجل لم نتوسع في سرد الشواهد التي اعتمدناها لتفصيل حياته والاستدلال بها على الاصل الثابت من شخصيته لان الكثير من هذه الشواهد مبثوث في المراجع التي اثبتناها في الحواشي وقد تركناها لمراجعة القارىء وفطنته

---

(١) أحمد الشايب في مجلة أبولو م ١ ج ١١ ص ١٣٠٧ ـــ ١٣٠٨

(٢) الشعراء الثلاثة ص ٣٥٣ ـــ ٣٥٤ (٣) الشايب في ابولو م ١ ج ١١ ص ١٣٠٧ (٤) أنيس الجليس، السنة ٩ ج ٩ ص ٣٧١ (٥) أنظر العدد الخاص بمطران من مجلة سركيس ـ عام ١٩١٣ ـ والشعراء الثلاثة ص ٣٥٢ ـ ٣٥٥ ومن المهم أن نقول أن في المصدر الاخير يوجد كلام عن مطران ص ٥٣ منسوب للمنفلوطي وهو في الاصل منشور بمجلة سركيس م ٢ ج ١٩ سبتمبر ١٩٠٦) ص ٢٧٦ جاء ضمن مقال بعنوان طبقات الشعراء بدون توقيع ويظن أنه للرافعي